هباسيا

﴿ لامين الريحاني ﴾

١

« مهد العلم الحديث »

* * * *

القي الرواية جانباً ، سيدتي ، فاقص عليك قصة حقيقية ، محورها المرأة والعلم وقطرها الظلم والتعصب . تعالي معي احدثك ماشياً فتفهمين كلامي ماشية . انّا الان لفي حي الاعيان من المدينة ، وها قصر الملك امامنا ، وبالقرب منه المتحف الشهير الذي بناه احد الملوك الفاتحين . وفي هذا المتحف دار العلوم التي يؤمها الطلبة من كل حدب وصوب . من الشرق يأتون ومن الغرب ، من الجنوب ومن الشمال ليتلقوا العلم والفلسفة من امرأة عالمة حكيمة .

أقف بك ، سيدتي ، امام هذه الكلية العظيمة . كلية لا شرقية هي ولا غربية . اقف بك امام هذا المعهد القديم — وهو مهد العلوم الحديثة — الذي شيده الامراء وخلد ذكره المؤرخون والشعراء . ما ابهى هذه الرواقات وقد غصت بالطلبة من كل اجناس الناس والطبقات . وما اعظم هذه المكتبة وفيها ما يربو على الاربعمائة الف مجلد . ولكنها والسفاه ستوزع على الحمامات بعد حين . ولا يعصي العلم على ابن العباس ! ولا الاربعمائة

الف مجلد تقوى عَلَى كتاب واحد : ان لله في خلقه وفي كتبه شؤونا ..

نعم ، سيدتي ، نحن في سراديب التاريخ فلا يهولنك ما وراءنا وما امامنا من الظلمات . عَلَى اني اقف بك موقف النور لنذرف دمعة عَلَى العلم وعَلَى احدى نسائه العاملات .

ليست المكتبة اعظم ما في المتحف العظيم بل هنالك دوائر اخرى ستريها. هذا المرصد الفلكي الذي يبعد الانسان من الخرافات ويقربه من الله . وهذا المعمل الكيماوي حيث الملك نفسه كان يشتغل بضع ساعات في النهار باحثاً عن اكسير الحياة . وهذه دار التشريح ولا اظنك تحبين ان تدخليها. وقد تتعوذين اذا اخبرتك ان الاطباء فيها يشرحون الاحياء ايضاً من حكم عليهم بالاعدام ابتغاء التوصل الى الحقائق الطبية الراهنة . لا تتكرهي ، سيدتي . فقتل المجرمين خير من قتل الابرياء.

تعالي فأريك جنينة الحيوانات وبستان النباتات حيث الطلبة يتعلمون من الامثال الحية علمي النبات والحيوان . ولا تظني ان التعليم في هذا المعهد العظيم ينحصر في العلوم الطبيعية فقط ، بل يتناول ايضاً العلوم العقلية والروحية . فان هذا المعهد لكمثل معاهد العلم كلها — انما هو معهد الحقائق والاضاليل معاً . ورُبَّ حقيقة تشعل الاوهام نورها . ورب اوهام كبعض الاطيار تبيض بيوضها في عش الحقائق . فقد نبغ في هذا المعهد العلمي المتشرعون واللاهوتيون والاطباء والفلاسفة والعلماء.

لا ، يا سيدتي . ليست كلية اكسفرد هذه ولا معهد الصربون . لسنا

الان في لندرا او في باريس انما نحن في المدينة التي ولد فيها العلم الطبيعي واللاهوت المسيحي تحت سقف واحد فتخاصما وتنازعا طويلاً وكان من شأنهما في قديم الزمان ما كان . انما نحن في قاعدة البلاد المصرية . في باريس الزمان القديم . في الاسكندرية على عهد الرومان . والمتحف الذي وصفت فروعه العلمية هو الذي شيده بطليموس سوتر وابنه فيلادلفس . وكان المليكان يدرسان ويعملان فيه كبقية الطلبة والعلماء

المؤرخون متفقون في ان كلية الاسكندرية هذه كانت في زمانها اعظم معهد للعلم في العالم . كيف لا ومن مرصدها رُصدت النجوم والكواكب التي استنار بها فيما بعد علماء اوروبا الفلكيون . كيف لا وفيها وُضعت فلسفة ارسطاطاليس الاستقرائية موضع العمل وكان من ثمارها ان معهد بطليموس هذا اضحى مهد العلوم الحديثة . ومَن مِن علماء اليوم ينكر فضل ارخيميدس في الرياضيات ؟ ومن لا يذكر بطليموس وآبولونيوس وهبارکوس في علم الفلك ؟ ومن لا يعرف اقليدس ومبادئه في الهندسة التي يتعلمها الطلبة في المدارس حتى اليوم ؟ وقد لا تعلمين ، سيدتي ، ان اراتوستينس ، وهو من علماء هذا المعهد ايضاً ، قاس الارض قبل علماء الخليفة المأمون . واكتشف شكلها الكروي قبل كبرنكوس وغاليلو وان هيرو اخترع آلة بخارية قبل جان وطس الانكليزي . وان تيزيبوس اول من اخترع ساعة مائية . وان يوليوس القيصر بعث يطلب من هذا المعهد الاسكندري سوسيجينوس الفلكي ليصلح له الروزنامة الرومانية على الحساب

الشمسي . فالمعهد الذي ينبغ فيه مثل هؤلاء العلماء العاملين ، لا شك ، عظيم . واعظم منه من كانوا يلقون فيه الدروس العالية

٢

— الفيلسوفة العذراء —

ومن هؤلاء سيدتي الفيلسوف ثيون الذي درّس الرياضيات في القرن الرابع (ب م) وراقب كسوفاً سنة ٣٦٥ وألف في الفلك والطبيعيات تآليف درست كلها . ولكن اعظم تآليف ثيون واعماله ابنته البارعة هباسيا . ولدت هذه الفتاة في الاسكندرية وقرأت العلوم على ابيها وكان لها ميل خاص في الرياضيات والميكانيكيات . وقبل ان وقفت حياتها على العلم والتعليم سافرت الى آثينا وتلقت هناك الشريعة والفلسفة . ورافعت في المحاكم . ونشأت نشأة عجيبة دلت على مقدرة عقلية فيها تضاهي مقدرة اعظم الرجال . ولما توفي ابوها كانت قد تمكنت من العلوم وبرهنت في مواقف عديدة على تضلعها ورسوخها في الرياضيات والفلسفة . فرُقيت في العشرين من عمرها وهي عذراء الى منصبه وظلت تعلم في المتحف الاسكندري اربعين سنة . فهاج اخيراً عليها هائج الجهل والتعصب فقتلها شر قتلة كما ستعلمين .

هباسيا زينة نساء الاسكندرية في تلك الايام ، ورئيسة الفلسفة الافلاطونية ، وصديقة الامراء المحبين للعلم والعلماء ، ومرشدة الحكام ، وعدوة التعصب والحماقة . كلنا نسمع بالملكة كليوباترا الناهية الفاسقة . ولكن من منا

يسمع بهباسيا العالمة العفيفة العذراء ؟ في المتحف الذي وصفته كانت تلقي دروسها على الالوف من الطلبة وفيهم الاعيان والاغنياء واللاهوتيون . في ذاك المتحف كانت تعلم باقصح لسان واجلى بيان فلسفة افلاطون الجديدة التي تدعى في تاريخ الفلسفة « نيوبلاطونيزم » . في ذاك المتحف الذي شيده بطليموس رفيق الاسكندر أثارت هباسيا انواراً اطفأها الجهل والتعصب فظلت بعدئذٍ اوروبا تعمه في الظلمات احد عشر قرناً .

وقد كانت هذه الوثنية الفاضلة رائعة الجمال ، فصيحة اللسان ، شديدة العارضة ، سديدة الرأي ، سريعة الخاطر ، شريفة الشمايل والخصال . وان آباء الكنيسة انفسهم ليعترفون لها بذلك . على انها كانت تتعب فكرها عبثاً في مسائل قد تشغل الفلاسفة بعد الفي سنة من اليوم كما اشغلتهم منذ الفين مضت . من اين الحياة والى اين ؟ فان هباسيا ، سيدتي ، أمد الله بحياتك وانارها ، كانت تحاول حل هذا اللغز القديم العظيم . ما هو العقل ؟ وما هو العلم ؟ وما هو الله ؟ — في مثل هذه المواضيع الخطيرة كانت الفيلسوفة العذراء تلقي دروسها وخطبها . والحقيقة ان فلسفة الاسكندرية في ايام هباسيا وقبلها انما هي مزيج من فلسفات اليونان كلها كفلسفة المشائين والرواقيين والكلبيين وغيرهم .

ومن تلاميذ هباسيا الذين حازوا شهرة في زمانهم سينيسيوس اسقف عكا . وقد بعث هذا الاب الفاضل برسائل عديدة الى ابنة ثيون البارعة فيها ثناء جميل عليها واعتراف بفضلها وجميلها عليه . ولم تزل هذه الرسائل

محفوظة · وفي احداها يستشير المراسل استاذته في عمل الاسطرلاب دليل انها كانت تميل الى علمي الفلك والميكانيكيات اكثر من سواهما · وقد ألفت كتاباً وشرحت كتب آبولونيوس في هذه المواضيع · ولكن عمراً بن العاص الذي جاء الاسكندرية بعدئذٍ لم ير فيها وفي الالوف مثلها كبير فائدة فوزعها على الحمامات لتسخن على نارها المياه · يرد الله مثواه ·

قد شهد المؤرخون لهباسيا الوثنية بالعفة والنزاهة كما شهدوا لها بالفضل والعلم والحكمة · وهم متفقون في انها عاشت وماتت عذراء · واما ما قاله سويدس في انها اقترنت بالفيلسوف ازيدوروس فلا صحة له · وقد قيل انه محض اختلاق وافتراء · والنمامون منذ البدء كثيرون · فالاسقف سينيسيوس اول من اعترف بفضلها وعلمها · وعندما تعرف بها وأخذ يحضر محاضراتها كانت اضحت في الاربعين من عمرها وكانت قد قضت في المتحف عشرين سنة تخطب وتعلم · وظلت الصداقة بين الفيلسوفة الوثنية والاسقف المسيحي نقية الاسباب وثيقة العرى · فلا هباسيا اعتنقت الدين المسيحي ولا سينيسيوس خلع ثوبه الكهنوتي (على اني قرأت في أثر لاحد اباء الكنيسة ان اسقف عكا لم يقتبل قواعد الدين المسيحي ولم يعترف بعقائده كلها · فهل في ذلك دليل على ارجحية الفلسفة في كفة ميزانه ؟ الله اعلم)

اما في سلوكها ولبسها ومعيشتها فقد كانت آية البساطة والجمال · واني لاتخيلها واقفة امام تلاميذها بثيابها البيضاء المهلهلة وقد عقصت بشريطة

من الحرير شعرها · وسدلت عَلَى كتفها ذيل ردائها · وفي رجلها العارية نعل يونانية بسيطة · فلا قبعة تثقل رأسها · ولا مشد يضعف رئتيها وقلبها · ولا كعب عالياً يضر بعمودها الشوكي وبمجموع اعصابها · آية في البساطة والبراعة والجمال ! وحبذا لو عادت نساء اليوم ، سيدتي ، الى الزي اليوناني القديم البسيط · خمس اذرع من القماش الكتان الرقيق خير من عشرين ذراعاً من الحرير الثقيل المخيط عَلَى آخر « موده » · فلا تثقلي وتشددي جسمك ، سيدتي ، كما لو كان جسم عدوتك · ناهيك بامر الاقتصاد والتوفير · عَلَى اننا لسنا الان في موضوع الازياء والاقتصاد ·

لنعد اذاً الى هباسيا · فقد وطّدنا الى ما يثير الاحزان من امرها · فان هذه العالمة الحكيمة التي كان يكرمها الاسكندريون الراقون · ويستفتيها العلماء العاملون · ويستشيرها في امور السياسة الحكام · لم تنجُ من كره المتعصبين من المسيحيين · فبعد ان خدمت العلم والفلسفة اربعين سنة خدمات جليلة ماتت موت الشهداء عَلَى افظع طريقة وانكرها كما ستعلمين

٣

— البطريرك كيرللوس —

لم تكن الاسكندرية في ذاك الزمن مهد العلوم المادية فقط بل كانت عش الكلام ايضاً والسفسطة · وبينا كان نستوروس وكيرللوس يتنازعان في عقيدة عبادة العذراء وأثاناسيوس وآريوس يتناقشان في عقيدة المشيئة الواحدة والمشيئتين كان علماء الاسكندرية يشتغلون هادئين باكتشافاتهم

واختراعاتهم · ومن آباء الكنيسة الذين اشتهروا بالفصاحة والعلم والتبحر والدهاء والمعاندة والمكابرة كيرللوس الذي كان بطريرك الاسكندرية على زمن هباسيا · فبينما هي كانت تلقي دروسها في العلوم والفلسفة على الالوف من الطلبة كان كيرللوس يثير من على منبره خواطر النصارى على اليهود · ولما ارتقى الى المنصة البطريركية في الاسكندرية كانت هباسيا في أوج شهرتها وقد تجاوزت الخمسين من عمرها · ومنذ ذاك الحين الى ان قتلت لم يطب للبطريرك عيش ولم يسغ له شراب · وان امره في التعصب والحقد والاستبداد مشهور لدى المؤرخين · فحينما ذهب الى أفسس ليناقش نستوروس في عقيدة العذراء استصحب زمرة من رعاع الاسكندرية حتى اذا ضاقت به ابواب الجدل هاجم على عدوه وعندما تبوأ كرسي السيادة طرد اليهود من الاسكندرية وبعث بعسكر على معابدهم وبيوتهم فنهبوها ودمروها وارتكبوا من الفظائع فيها ما تقشعر لهوله الابدان ·

ولا يخفى عليك ، سيدتي ، ان البطريرك في تلك الايام كانت له قوة الحاكم المدني فان فرقة من الجنود كانت دائماً موقوفة لخدمته لتنفيذ اوامره · على ان محافظ البلد اورستيس لم يستطع صبراً وسكوتاً على هذه الفظائع التي ارتكبها كيرللوس باسم الدين · فناهضه برهة وكانت هباسيا في هذا الخصام نصيرة المحافظ بل نصيرة الحق · واستمر هذا النزاع الى ان حدث الحادث الهائل الذي أودى بحياة ابنة ثيون العالمة الجميلة · ولا تنظني سيدتي ان هذا هو السبب الوحيد الذي اثار خاطر كيرللوس على

هباسيا · فان رأس الخلاف بينهما لابعد من هذا · اجل انما هو نزاع بين العلم والخرافة · بين التعصب والفلسفة · بين الحرية والاستبداد · بل هو نزاع بين عذراء وثنية اقامت عَلَى فضائل الدين المسيحي دون ان تعتنقه، وبين بطريرك استخدم الدين واسطة لاشفاء غليله ونيل مآربه · وفاز بذلك فوزاً مبيناً · حتى ان المحافظ أورستيس أشفق عَلَى منصبه وحياته من تعصب البطريرك وتغيظه · ولكن ذنب المحافظ ذنب سياسي فقط ، وذنب هباسيا سياسي علمي ديني · لذلك اختارها كيرللوس هدفاً لحقده وغضبه · وسانتقل اليك حادثة قتلها كما رواها واتفق في روايتها المؤرخون

عندما كانت هباسيا عائدة في عربتها من المتحف الملكي قاصدة بيتها تصدى لها جمهور من رعاع المسيحيين وفيهم الرهبان وفي مقدمتهم بطرس النشاس الذي كانت له في الجريمة المنكرة اليد الطولى · فاستقطوها من العربة · وجروها الى السيزاريوم (وقد كانت في ذاك الزمان كنيسة للنصارى) ونزعوا عنها كل ثيابها ومزقوا جسدها تمزيقاً بصدف المحار (وقيل بشقف من القرميد والفخار) ثم قطعوها ارباً ارباً وذهبوا بها الى خارج المدينة وحرقوها هناك · وكان ذلك في اذار سنة ٤١٥ في عهد الملك تيودوسيوس الثاني · فقدّس كيرللوس في صباح اليوم التالي عَلَى عادته · وأكل جسد الرب ولكنه لم يستطع ان يقول ما قاله بيلاطوس قبله باربعة قرون — انا بريء من دم هذا الصديق · لا · فان البطريرك مسؤول عن قتل هباسيا عَلَى هذه الطريقة الفظيعة الشنعاء · وقد يتطرف المؤرخون ويعتدلون

بحسب نزعاتهم السياسية وصبغاتهم الدينية · ولكن مـا من واحد منهم يرتاب في ان البطريرك كيرللوس هو العامل الخفي عَلَى قتل هباسيا · وقد قال ثيودورت ، وهو من آباء الكنيسة المشهورين ، ان لكيرللوس يداً خفية في هذه الجريمة · وقال احد المؤرخين المعتدلين — ان لم تقتل هباسيا بامر صريح واضح من البطريرك فقد قتلت بعلمه وارادته.

وقد ادهشني عنوان طويل لكتاب طبع في انكلترا سنة ١٧٢٠ في هذا الموضوع · قال المؤلف ان هذا « تاريخ امرأة عظيمة في علمها وفضلها وفصاحتها واخلاقها وجمالها قتلها اكليروس الاسكندرية ومزقوها اربا اربا اكراماً لخاطر بطريركهم الذي يدعى بلا استحقاق القديس كيرللوس » . وفي قتلها أقفل باب المتحف العظيم الذي شيده رفيق الاسكندر · في قتلها كانت نهاية العلم والفلسفة في المغرب · في قتلها تم للتعصب النصر عَلَى الحرية والتهذيب · فأقفل باب النور الذي فتحه بطليموس في الاسكندرية كما أقفله يوستنيانوس في اثينا · فكان سمبليسيوس آخر الفلاسفة في بلاد اليونان وكانت هباسيا خاتمة الفلاسفة في بلاد مصر · ومنذ هاتين الحادثتين المنكرتين تبتدىء ما يدعى في التاريخ « العصور المظلمة » وتستمر في اوروبا احد عشر قرناً ·

هذي هي سيرة هباسيا « العظيمة في علمها وفضلها وجمالها » بل هذه قصة النزاع بين الدين والفلسفة في ذلك الزمان · ومهما قيل في البطريرك كيرللوس فمن المقرر ، سيدتي ، ان الرجل الذي يعمل ما عمله في اليهود

— الرجل الذي يهيج وعاعه عَلَى نستوروس في مجمع أفسس — الرجل الذي يستخدم القوة العسكرية لاثبات عقيدة لاهوتية وتعزيزها — لايتردد في امر امرأة عملت عَلَى هدم صروح الخرافة والاوهام · فقولي اذاً — رحم الله امثال كيرللوس من البطاركة وجعل امثال هباسيا من المقربين المكرمين

عجباً للقضاء ثم عَلَى الخلق — فهمت ان تبل الحزماء
غلب المين منذ كان عَلَى الخلق — وماتت بغيظها الحكماء
واحاديث خيرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
ولو ان الانام خافوا من — العقبى لما جارت المياه الدماء
أجدر الناس في العواقب بالرحمة — قوم في بدئهم رحماء
فهمُ الناس كالجهول وما — يظفر الا بالحسرة الفهماء
كيف لا يشرك المضيقين في النعمة — قوم عليهم النعماء

« ابو العلاء المعري »